مجلّة
اللّغة العربيّة وآدابها
رقم الإيداع القانوني: 2013-8004 ISSN: ر.د.م.د: 2352-9830

صورة الرّجل في شعر المرأة الأندلسية

1-الصورة الإيجابية

The Image of Man in the poetry of the Andalusian Woman

1. Positive image

فداق بلقاسم FEDDAG BELKACEM

طالب دكتوراه

إشراف: أ د. بن مالك حسن.

مخبر كتابات ثورية

جامعة وهران 1-أحمد بن بلة.

تاريخ الإرسال : 2017 /05/16 تاريخ القبول: 2018/01/10

الملخص:

هذه الدراسة تكشف عن موضوع لم يكن بارزًا في الدراسات العربية، فصورة الرجل في شعر المرأة الأندلسية قليلا ما تناولها الباحثون بالتحليل والدراسة، ومن التفت منهم إليها كان التفاته عابرًا، دون دراسةٍ عميقة مخّتصة.

من هنا جاء هذا البحث كاشفًا لصورة الرجل، لا سيّما أنّ العصر الأندلسيّ غنيٌّ بالنساء الشاعرات. وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من أشعارهن، إلا أن الذي وصلنا منه قد التقط صورا متعددة للرجل، أبرزها صورة الرجل القمر، وهي دلالة الرجل المثال في شعرهن، وهنا تظهر المرأة الرجل في صورة مقدسة، كما ظهرت للرجل المثال صور أخرى تنم عن صفاته الخلقية، مثل: صورة الرجل الشمس، والنجم، والأسد، الخ....

الكلمات المفتاحية: صورة الرجل؛ شعر المرأة الأندلسية؛ دراسة عميقة؛ صورة مقدسة؛ الرجل الشمس؛ الرجل الأسد؛ ...

Abstract

Now comes this research revealing the image of the man, especially that the Andalusian age had a lot of female poets. In spite of the few that reached us from their poems, but what we had could give us multiple images for men, most notably the image of the man as a moon, as a sign of a perfect man. She tried to put him in a sacred image. The man was also described in other images reflecting his ethical qualities like the sun, a star, the lion etc.

Keywords:

Image of man; andalusian woman poetry; notably image; ethical qualities …

*** *** ***

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

1. مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي:

الأدب الأندلسيّ عنوانٌ مُهمٌ في تاريخ حضارة المسلمين العرب، وصورةٌ حضاريّة رفيعة تعكسُ ألوانَ الحياةِ الراقية، التي عاشها المسلمون إبّان ذلك العَصْر .والشِّعر الّنسوي في تلك البلاد،حقيقةٌ لا نستطيعُ تجاهلها، أو إنكارها، أو غضّ الطرف عنها، فأدبهن ماثِل للقاصي والدّاني، ابتداءً من الفتح الإسلاميّ، وانتهاءً بسقوطِ المدن الأندلسيّة، وأُفول حضارة العرب الزّاهية فيها .ففي تلك البلاد السّاحرة كُثرت الأديبات، وعَظم شأنُ التجربة الإبداعية لديهن ، وكان الإنتاج الأدبيّ عندهن فريدًا من نوعه، حيث اتَّسمَ بالوفرة، والخوض في معظم الأغراض الشعرية من مدح وهجاءٍ، وغزل، وفخر ..الخ.

ولقد استطاعت المرأة الأندلسية في العصور المختلفة، أن تشاركَ بحظٍ كبير من الّنشاط العلمي والأدبي، فكانت المرأة مُتعلِّمة، مُثّقفة، تربّي الجيلَ النَّاشئ، وكان منهن الطبيبات اللواتي كنّ يُداوين الجراح، ومنهن من نالت نصيبًا وافرًا في مِضمار الشِّعر جعلها تَعْدِلُ كّفة ميزان الإبداع الأدبيّ بينها وبين الرجل وأحيانًا تزيدُ عنه صَراحة وجُرأة.

وقد احتلَّ الرجلُ مكانة كبيرَة في شعر هؤلاء الشاعرات؛ نظرًا لعواملَ كثيرة أسهمت في تعميقِ مشاركة المرأة للرجل وتوطيدها في ذلك العصر، ولذلك التقط شعرهن صورًة خاصة ومميّزة للرجل تختلف_ كمًّا وكيفًا _عن الصورة الموجودة لدى أديبات أيّ عصر آخر.

ومن النساء من سطع نجمهن، ولمع اسمهن في سماء الأدب، فاشتهرت النساء الشواعر اللواتي أبدعن في نظم القصائد، حتى أن منهن من تفوقن على الرجال شهرة مثل ولادة بنت المستكفي، التي نجحت في اجتذاب عددٍ كبير من الشعراء إلى منتداها الأدبي[1] ، فقد ورد في الحديث عنها: "كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعبًا لجياد النظم، والنثر يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها".[2]

وهكذا نجد أن المرأة الأندلسية تحمل في دواخلها الكثير لتمنحه لمجتمعها، فعدا عن مشاعرها الفياضة بالحب والحنان تجاه شريكها الرجل، تّتسع آثارُها في الحياة على مستوى الواقع العملي، وتتوّقد لديها الأدوار الإيجابية، فتشعّ على من حولها علمًا غزيرًا، وعملا جليلا وأدبًا جميلا، لتؤّثرَ بدورها الإيجابيّ هذا في حياة الكثيرين، فهي صانعة الرجال ، ومعلمة الأجيال، والقطب الثاني المُكمّل لدور الرجل في الحياة، وهي الفنانة التي تزيّن

المنارة للاستشارات

بريشتها الإبداعية الأدبية صورَة شريكها الذي تحبّه، وُتقَبّحُ بذاتِ الوسيلة صورَة من تبغضه منهم.

وقد برزت الشاعرات بكثرة في ذلك المجتمع، أحصى الدارسون[3] عددهن، فكنّ قرابة خمس وعشرين شاعرة، موزّعة على مختلف عصور ذلك العهد، قسِّمت ما بين الجواري والحرائر . وممّا يجدرُ ذكره أن هذا الكم من الشاعرات إنما يدلُّ على انفتاح المجتمع الأندلسي وتحرر المرأة فيه من سطوة الرجل، وسيطرته على نشاطات الحياة المختلفة ؛ بفضل تطور الحياة الاجتماعية، وتقدّم الوضع الاقتصادي، وإيمان الرجل بمبدأ تكافؤ الفرص بين الجنسين: الرجل والمرأة على حدٍّ سواء[4].

يمكننا أن نورد أسماء من اشتهر منهن، وفق الترتيب الزمني الذي عاشت فيه كل واحدة منهن.

"شاعرات الأندلس"

أ- شاعرات القرنين الثاني والثالث الهجريين:

شاعرة من الحرائر	شاعرة من الجواري
حسانة التميمية.	الجارية العجفاء.

ب- شاعرات القرنين الثالث والرابع الهجريين:

الشاعرات الحرائر	شاعرات من الجواري
عائشة القرطبية	الجارية قمر.
حفصة بنت حمدون الحجارية	أنس القلوب.
صفية بنت عبد الله الربي.	

ج- شاعرات القرن الخامس الهجري:

الشاعرات الحرائر	شاعرات من الجواري
أولا :الشاعرات الأميرات :	غاية المنى.

" الأميرة » أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح.

"الأميرة » ولادة بنت المستكفي.

" الأميرة » بثينة بنت المعتمد بن عباد.

ثانيًا :الشاعرات من الطبقة العامة:

المنارة للاستشارات

- الغسانية البجانية.
- زينب المرية.
- حمدونة بنت زياد.
- زينب بنت زياد.
- نزهون القلاعية.
- مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري.
- أم العلاء بنت يوسف.
- مهجة بنت التّياني.

د-شاعرات القرن السادس الهجري:

الشاعرات الحرائر	شاعرات من الجواري
حفصة الركونية	هند جارية عبد الله الشاطبي.
أسماء العامرية.	
أم الهناء الشلبية.	
سعدونة بنت عصام الحميري.	

قسمونة بنت إسماعيل(شاعرة يهودية عاشت في القرنين السادس والسابع الهجريين).[5]

2_ في البنية والصورة والغرض الشعري:

تتألف قصائد المرأة الأندلسية من مقطعات شعريّة صغيرة، وربما تكونت من بيتين أو ثلاثة .فلم تكن الشاعرات تكتب المطوّلات الشعرية، كبعض القصائد الذكورية التي تزيد أحيانًا عن مئةِ بيت؛ ولعلّ ذلك يعود إلى ضيق الدائرة التي تدورُ حوَلها حيأة المرأة بشكل عام بالنسبة للرجل، وربما إلى ضياع جزءٍ كبير من الشعر النسوي؛ لعدم اهتمام المؤلفين كثيرًا بنقله .وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا منه إلا أنّ أشعار الأندلسيات قد عكست خصوصية الشعر النسويّ، ونسويّة الهُويّة الأدبية.

ومن خلال رصد الشعر الأنثوي في الأندلس، يمكن القول :إن الشاعرة الأندلسية لم تتقيّدْ أو تّتبع في بناء قصيدتها المنهجَ التّقليديّ، كاستهلال القصيدة بمقدمة غزليّة، ثمّ الغرض، وبعد ذلك الخاتمة، وإّنما كانت تدخلُ مباشرَة إلى الغرض الذي تقصده.[6]

المنارة للاستشارات

ويّتسم شعر النساء بوحدة الموضوع، وبأسلوبه الرّقيق العاطفي، الذي يُعبّرُ بصدقٍ عن مصدره الأنثوي. وقد نظمت نساء الأندلس في معظم الأغراض الشعرية، فكانت تمدح وُلاَة الأندلس وعظمائها، وتفخرُ بنفسها وبأنوثتها، وبِنسَبِها، كما نظمت في الشكوى، والرِّثاء والمُداعبة، والسخرية، والشعر القصصيّ، وفي الحنين والتّهنئة، وتطرّقت إلى الموشحات.

ويُعدّ شعر الغزل من أكثر الأغراض الشعرية التي اهتمّت بها المرأة الأندلسية في شعرها؛ لأن الغزل ناشئ عن الإعجاب العقلي، والحب القلبي، وقيمة المشاعر والحب والعاطفة تحتلُّ حيّزًا كبيرًا في تركيب المرأة الخلْقي، والمتأمّل في حياة المرأة في ذلك العصر، يلحظ أن المرأة كثيرة الاختلاط بالرجل؛ نظرًا للانفتاح والحريّة التي مُنِحَت لها. كما أنّ شؤون الحرب والقتال بعيدّة عن اهتماماتها لذا كان موضوع الغزل هو الأنسَبُ لها، والأقرب إلى قلبها.

صورة الرَّجُل الإيجابيَّة

رمزا الهَيْبَة وَعُلوِّ المكَانة (القمر والشمس)

أولا :القمر

يُلاحِظ دارسُ شعر المرأة الأندلسية ربطًا وثيقًا بين الرجل والقمر، فتبدو صورة الرجل قمرًا مضيئًا في ظلام الليل، يُسبغُ نوره على أفق الكون كله.

وفي هذه الصورة تشترك الشاعرات النساء مع الرجال في النظرة الحسيّة لعالم الجمال الخلْقي فالرجال كثيرًا ما تغزلوا بالمرأة، واصفين جمال وجهها بالقمر المضيء في الليل وبالبدر المكتمل.

وهكذا كان الحال عند المرأة الأندلسية، فقد وصفت حبيبها بالقمر، إذ تقول نزهون الغرناطية في شعرها: (من البسيط)

لّلـه درّ الليالي ما أُحيْسنها   وما أُحَيْسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضِرنا وقدْ غفلت   عين الرقيب فلم تنظر إلى أحدِ

أبصرت شمسَ الضحى في ساعِديْ قمر   بل ريمَ خازمةٍ في ساعِديْ أسدِ (7)

وتكشف دلالة التصوير البيانيّ أن وجه الشبه بينهما هو الوضاءة، وجمال الاستدارة والرفعة وعلوّ المكانة. ففي هذه الأبيات تُصوّرُ الشاعرة مشهد لقائها بالحبيب، بمشهدٍ خياليّ يفوق الواقع، فهي تسبغ على نفسها صفات الشمس المنيرة في وقت الضحى،

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

وترى في حبيبها قمرًا يضمُّ تلك الشمس بين ذراعيه .والشمس هنا تتشابه مع الأنثى لأنها تشع نورًا وألقًا، وجمالا، ودفئًا .بينما يمّثل القمرُ وجهَ الرجل بنوره، وهيبته، وبهائه، وجاذبيّته.

وفي مشهدٍ آخر تدخل عائشة القرطبية على المظفر المنصور بن أبي عامر ، وهو يداعب ولده فتُصوّرُ ما تتأمّله في وليده حينما يكبر، ويصبح فارسًا مغوارًا بين جنده في القتال بالبدر الذي تحيط به الكواكب من كل جانب، مما يدلّ على سموّ مكانته ، وبروز شخصيته فتقول: (من الوافر)

فَسَوف تراهُ بدرًا في سَماءٍ مِنَ العَليا، كَواكِبُهُ الجُنود [8]

وفي أبيات أخرى تصف الشاعرة أنس القلوب الرجل الذي ملأ فؤادها شغفًا بالبدر، فتقول متغزلة به: (من الخفيف) [9]

قَدِمَ اللَّيلُ عِنْدَ سَيْرِ النَّهار وَبَدا البَدرُ مثْلَ نِصفِ سوار

فكأنَّ النّهارَ صفحَة خدِّ وكأنَّ الظلامَ خطُّ عذار

وإذا ما تتبّعنا الأصول القديمة في الفكر العربي فإنَّنا نجدُ العربَ قد عبدت القمر في القديم وكان يُعّد إلهًا ذكرًا في أكثر الحضارات الشرقية [10]

ولعلّ ذلك سببٌ جعلَ المرأة تربط صورة الرجل به، حين يصبحُ زوجها، ويجمعها به رابطٌ مقدس، أو حين تعتبره مصدرًا للطاعة والولاء إن كان والدها، وكذلك بوصفه مركز اهتمامها إن كان هو حبيبها الذي تذوب به عشقا.

ثانيًا: صورة الرجل (الشمس)

تعتبر الشمس مصدر النور والضياء، وبدونها تنعدم الحياة وتتجمد على سطح الكرة الأرضية .فهي أساسية لاستمرار حياة النبات والحيوان والحياة البشريّة؛ ولأنها أهمّ أسباب استمرار الحياة على سطح الأرض؛ فقد قدّسها القدماء، وبعضهم عبدها من دون الله تعالى.

وقد عُرفت عبادتها في الجزيرة العربية، وغيرها من المناطق منذ قديم الزمان ، مثل : اليمن، فقد عَبَدَ أهلُها الشمس في عهد بلقيس ملكة سبأ، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن تلك القصّة في حديث الهدهد مع سيدنا سليمان "عليه السلام " في قوله تعالى :"فمَكث غَيْرَ بَعيدٍ فَقالَ أَحَطت بمَا لمْ تحِطْ بهِ وَجئْتكَ مِن سَبَإٍ بِنبَإٍ يَقِين [22] إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تمْلِكهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شيْءٍ وَلهَا عَرْشٌ عَظِيم [23] وَجَدتُّهَا وَقوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْس مِن دُون اللَّهِ

المنارة للاستشارات

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فصَدَّهُمْ عَن السَّبِيل فهُمْ لا يهْتَدُونَ (24) أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْض وَيَعْلمُ مَا تخْفونَ وَمَا تعْلِنونَ (25) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْش الْعَظِيم (26) ".[11]

وقد شكلت الشّمس مع القمر والزهرة " عشتر أو عثتر " أركان الثالوث المقدّس في معتقدات الأمم القديمة في الفكر السومري، والبابلي، والأشوري، والفينيقي، والمصري، واليوناني والروماني، والعبراني، إضافة إلى اليمنيين والعرب الجاهليين [12]

وقد ارتبطت صورة الرّجُل بالشّمس؛ نظرًا لتلك الهالة القدسيّة، والعظمة التي كانت تحيط بها فبوجودها تستمرُّ الحياةُ على وجهِ الأرض، ويتجدَّدُ بشروقها النَّهار، وتَعُمُّ الحَرَكة.

والرّجُل كان مهمًّا، وأساسيًّا في حياة المرأة، مثل الشّمس الذي يُشكِّلُ وجودُها أساسًا لاستمرار الحياة ولهذا تصف الشاعرة الأندلسية حفصة بنت حمدون حبيبها بالشّمس فتقول: (من الطويل)

بِوَجهٍ كمثلِ الشَّمس يدعو ببشره الـ عيــونَ ويثنيها بإفراط هيبتِه[13]

ففي هذا البيت تُصوّرُ الشاعرة وَجْهَ الرجل بالشمس، التي تبعث في النُفس البِشرَ والسّعادة لجمال الحياة، وحيويّتها، وفي الوقت ذاتِه تنثني العيون عنه هيبة؛ لعِظمِ شأنه ، تمامًا كالشمس لا نستطيع التحدّيق بوجهها؛ لفرط أشعتها السّاطعة، على الرغم من حبّنا لوجودها واعترافنا بأهميتها لاستمرار الحياة .وتتمّثلُ صورة الرجل بالشمس أيضًا، في شعر الأندلسية اليهودية قسمونة بنت إسماعيل بن بغدالَة حيث تقول: (من الكامل)

كَالشَّمْس مِنْهَا الْبَدْرُ يَقْبِسُ نُورَهُ أَبَـدًا وَيَكْسِف بَعْدَ ذلِكَ جُرْمَـهَا [14]

وهنا تُبْرِزُ الشاعرة قيمة أخرى للشمس تعلو على القمر، فهي مصدر الّنور الذي يُضيء به في الليل فتتواصلُ مسيرة الحياة.

ومما لا شكّ فيه أن الشاعرات الأندلسيات يرغبن بالكشف عن جماليات صورة الرجل وهيبته وعِظمِ دوره، من خلال خلع صفات الشمس والقمر عليها .حتى يوازي حديثُهم أفكارَهم المثاليّة حول الرجل.

المنارة للاستشارات

ثالثًا: صورة الرّجُل (النَّجم)

تعدُّ النجوم من الحقائق الكونية العظيمة التي خلقها الله _ عزّ وجل _ وقد شغلت فكر الإنسان منذ القدم .وكثير من الشعوب البدائية عبدت النجوم وقدستها، كنجمة الزهرة التي أُطلق عليها (عشتار) فقد كانت آلهة عند القدماء ومنهم العرب .وعلى امتداد الزمن درست البشريّة السّماء وَتأمّلت ما فيها من نجوم وكواكب لسَبْر أعماق الكون، و ظلّ العلماءُ عاكفين على اكتشافها حتى تطوّر البحث حولها من العين المُجرّدة إلى التلسكوبات العملاقة التي تعمل بوسائل مختلفة وما زالَ البحث عن أسرار الفضاء ماثلا إلى يومِنا هذا.

ومثلما شغلت النجومُ فكرَ العلماء والفلكيين منذ قديم الزمان، انشغل بها الأدباءُ، والشعراء على امتداد العصور، وكانت حاضرَة بقوّة في أشعارهم وكتاباتهم .وكذلك لم تغلق المرأة خيالَها عن هذا الإبداع الإلهي، وإنما انتزعت من صفاءِ النجوم، ولمعانها وسُموّها، صورَة لحبيبها فكان الرجل المعشوق نجمًا في سماءِ خيالها، وقد عبّرت عن هذه الصورة الشاعرة حفصة الركونية، وهي ترثي حبيبها، الذي قتلَ بسبب حبه لها [15] ،فتقول فيه: (من الطويل):

ولو لمْ يَكن نجْمَاً لما كانَ ناظِري وَقدْ غبت عنه مُظلمًا بَعدَ نوره

سَلامٌ على تِلكَ المَحاسِن مِنْ شَج تَناءَت بنعماه وطِيب سُروره [16]

ففي هذه الأبيات يَظهرُ الرجل بصورة النجم المضيء، ويشكل غيابه عن ناظري المرأة ظلامًا في حياتها، وانتفاءً للسعادة، وطيب العيش.

رابعًا: صورة الرّجُل الشُّجاع (الأسد) رَمز الْقوَّة

الشجاعة مأخوذة من الأصل الثلاثي (شجُعَ) بمعنى قويَ قلبه واشتدّ عند البأس، وهي التغلب على رهبة الموقف، وهي ثبات القلب، واستقراره، و قوته عند المخاوف، و الّثبات خُلقٌ يتوّلدُ من قوّةِ الصّبر، وحُسْن الظن؛ لأن الثبات أَثرُ كمال تلك الْقوّة؛ فالشجاعة إذن تتكون من: قوة الجنان، والجرأة على العدوّ، و استصغار شأنه [17].

وكثيرًا ما وصفت المرأة الرجل بالشجاعة في شعرها منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا فالخنساء تغنت بشجاعة أخيها في القتال، ووصفته بالأسد في قولها [18] :

كَمِثل اللَّيثِ مُفْترِشٍ يدَيْه جَريءِ الصَّدر رئْبال [19] سِبَطْرِ [20]

المنارة للاستشارات

إنّ الشجاعة من أهم الصفات الحميدة التي ترغبها المرأة في الرجل، ولذلك وجدت في صفات الأسد ما يرمز إلى القوة والشجاعة، لتصوّرَ الرجل الفارس المغوار في ميدان المعركة به .فهي تريده مُحارِبًا قويًّا، لا يهابُ العدوّ، شَرِسًا ضاريًا لا يَخشى القِتال .وهي بذلك تأنف من الجبان وَتمْقته.

وقد صوّرت المرأة الأندلسية شجاعة الرجال في شعرها، وخلعت عليهم صفات الأسد في الحرب تعبيرًا عن القوّة والاستبسال في ساحة الوغى .من ذلك قول عائشة القرطبية في ولد المظفر بن أبي عامر: (من الوافر)

أراكَ الله فيه ما تريدُ ولا برحت معاليه تزيد
فقد دّلت مخايُله على ما تُؤمّلهُ وطالِعُه السّعيد
تشوّقت الجيادُ له وهـ ـزَّ الحُسامُ هوىً وأشرقت البُنود
وكيف يخيبُ شبلٌ قد نمته إلى العَلْيا ضَراغِمةٌ أُسود
فأنتم آل عامر خيرُ آلـ زكا الأبناء منكم والجُدود
وليدُكم لهُ رأيٌ كشيْخ و شيْخكم لدى حرب وليد [21]

فالشاعرة هنا تُبشّرُ المنصور بن أبي عامر بمستقبل ولده المشرق، فالخيل وميادين القتال في انتظاره والسيوف تهتزُ شوقًا لقبضةٍ يده، والأَعلامُ ترفرف شوقًا لانتصاراته . وصورته تظهرُ كالأسدِ بين جنوده، وليس ذاك بغريب، فهو من سُلالةٍ رفيعة المستوى ، رجالُها أشدّاءٌ أقوياءٌ. فهذا الشبل من ذاك الأسد _ كما يقولون _ فهو شبيهٌ بآبائه المتميّزين، أولئك الذين يملكُ الوليدُ الصغيرُ فيهم رأيًا كالشيخ الكبير، ويبدو الكبيرُ منهم في القتال في حيويّة الصغير الشاب المحارب بقوة.

ولا تقتصرُ صورُة الرجل الأسدِ في أدب المرأةِ في مجال الحرب فقط، بل تتجاوزُها إلى مجال الحبّ والمودّة، والأوقات الحميمة بيَنهُما، فهذه نزهون الغرناطية تُصوّرُ ساعدَ حبيبها وهو يضمُّها ويحَتضِنها بساعدِ الأسد؛ ممّا يدلُّ على صلابةِ جسدِهِ، وحبّها للرّجل القويّ .فتقول في وصفِ لقائِها بالحبيب، والهيئة التي كانا عليها وقتها: (من البسيط)

أبصرت شمسَ الضحى في ساعِديْ قمر بل ريمَ خازمةٍ في ساعِديْ أسدِ [22]

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

وفي هذا البيت يتبيّن أنّ المرأة لا تعشق في الرّجُل وَجْهَه وحُسْنَ خِلْقتِه فحسب، بل هي شديدُة الغرام أيضًا بُقدراتِهِ الجسديّة، فقوُّة الجسد وصلابَتِه، سِمَةٌ مرغوبَةٌ في صفاتِ الحبيب، تنبئُ عن شباب الرجل، وفحولته، وقدرته على حمايةِ الأنثى واحتوائها.

خامسًا :صورة الرّجُل الكريم (المعطاء)

من السُّبل التي يكسب فيها الرجل قلبَ المرأة عادَة شعورها بكرمه ، وكثرة عطائه وخيره والإعجاب بالرجل الكريم لا يقتصر على النساء فقط، بل هو خلقٌ مُتجذّرٌ في أعماق النفس العربية. فالعرب يتفاخرون بصفة الكرم منذ قديم الزّمان، وهي من أشرف السَّجايا، وأخلد المآثر ولا يزالُ كرمُ حاتم الطائيّ مَضْربَ المثل إلى الآن، كما أنَّ الله _ عزَّ وجل _ وصف في كتابه العزيز كثيرًا من الأمور المُهمّة بهذه الصّفة، فقد قالَ تعالى :" إنه لقرآنٌ كريم"[23] وفي آيةٍ أخرى أخرى يقول الله _ سبحانه وتعالى:_"وجاءهم رسولٌ كريم"[24] ، وقال تعالى :"و زروع ومقام كريم"[25].

وقد نالت الفضائل الخلقيّة للرجل، و أَخلاقه الحَسَنة، نصيبَ الأسد في شعر المرأة عامة. فالمرأة تهتمُّ بصفات الرجل الذي تعيش معه، أكثر من اهتمامها بمحاسِن جسده، وإن كان كلاهما مهمٌ في شعرها، إلا أن أخلاق الرجل وصفاته الحسنة، صفةٌ لا بُدَّ منها في صورة الرجل المثاليّ بنظرها.

وقد أشادت المرأة الأندلسية في شعرها بصفة الكرم عند الرجل ، وصورت جود ه، وكرمه في أبياتها، وذلك بقول مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري في مدح المهنَّد، وفي رواية أخرى المهدي[26] (من البسيط) :

من ذا يُجاريك في قول وفي عمل	وقد بدرت إلى فضل ولم تُسَل
ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي	من اللآلي ، وما أوليت من قبل
حّليتني بحُلىً أصبحت زاهية	بها، على كل أنثى من حلىً عُطل
لله أخلاُقكَ الغرّ التي سُقيت	ماءَ الفراتِ، فرّقت رّقة الغزَل
أشْبهت في الشِّعر من غارت بدائعه	وأنجدتْ وغدت في أحسن المُثل
من كانَ والده العضبُ المهّند لم	يلد من النّسل غيرَ البيض والأسل [27]

وفي هذه الأبيات تمتدح مريم أخلاق هذا الرجل الكريم النبيل، الذي جاد عليها بكرمه وفضله حتى أصبحت تفتخرُ بعطائه أمام الآخرين، كما ترجِعُ أصل هذه الأخلاق

المنارة للاستشارات

الرفيعة إلى والده فالمنبت الحسن لا يُنجب إلا كل حسن وجميل مثله .وقد ابتدأت أبياتها بالثناء عليه، وعلى كرمه وجوده، وبعد ذلك شكرته على ما نظم فيها من أبياتٍ تشيد بصفاتها الجميلة .ثم تغنت بأصله وكريم خُلقه.

وإذا تركنا شعر الحرائر،وانتقلنا إلى الجواري اللواتي يُعانين من الرّق، وما فيه_عادَة_ من ظلمٍ واستبداد، نجد أن الجارية قمر تُصوّرُ مدى كرم مولاها إبراهيم بن حجاج اللّخمي صاحب إشبيلية، فتقول: (من الكامل)

ما في المغارب من كريمٍ يُرتجى إلا حليف الجودِ إبراهيمُ

إنّي حللت لديه منزلَ نعمةٍ كلُّ المنازل ما عداهُ ذميمُ[28]

ومما يجدر ذكره أن نظرة الإعجاب والتقدير هذه، وتفضيل البقاء بقربه، على أيّ مكان آخر في الدنيا إنّما يدلُّ على كرم الرجل، ورّقة معاملته مع ما ملكت يميُنه.

سادسًا :صورة الرجل(الوفيّ)

الوَفاء كلمة رقيقة المعنى، تحمل في دواخلها معانيَ جميلة كالودّ، والإخلاص والمحافظة على العهد، والبذل والعطاء، وعدم الخيانةِ أو الغدر. وقد دعانا الله _ جلّ ذكره، وتقدّست أسماؤه _ إلى الوفاء بالعهد، وذلك في قوله تعالى: "وَأَوْفوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئولا"[29]. فالوَفاءُ صِفَةٌ عظيمة، وهي " من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبُها في العيون، وتَصْدق فيه خطرات الظنون"[30].

والمرأة بطبيعتها تُعْجَبُ بالرجل الوفيّ، الذي يُقدّسُ حبّها ويصونه، ولا يخونُ عهدها. وعندما يُشعِرُ الرجلُ المرأة أنها جديرة بحبه وإخلاصه تنفجرُ عطاءً، وتصبح العلاقة في مُجملها تبادلية تسيرُ بالأخذ والعطاء[31] ، ويبقى سِحرُ الحبِّ حيًّا بين أولاد آدم وحوّاء يَضْبطه الوفاء،حتى الوفاء،حتى وإن فرّق بينهما الَقدَر.

والأدب النسوي بطبيعته يكشف لنا جوانب متعدّدة في حياة المرأة، وخاصة العاطفية منها .ولذا فقد أبرزت المرأة في شعرها صورًة للرّجل الوفيّ، الذي تعاهد معها على الحب طيلة العمر وهي بذلك تقابله بالعطاء ذاته، ولا تتخلى عن حبه حين تخطفه أيدي المنون بل تحافظ على عهده، ولا تستبدل به أحدًا .وفي هذا المعنى تقول الشاعرة حسّانة التميميّة حينما سألها رجلٌ حول رغبتها في الزواج بعد وفاة زوجها: (البسيط)

كّنا كغصنين في أصل غذاؤهم ماءُ الجداول في روضات جناتِ

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

وكان عاهدني إن خانني زمني أن لا يُضاجعَ أنثى بعد مثواتي
وكنت عاهدته أيضًا فعاجَله ريبُ المنون قريبًا منذ سيناتي
فاصرف عنانك عمّن ليس يَرْدَعُها عن الوفاءِ خلاب في التحياتِ[32]

إنّ المتأمل في هذه الأبيات يلحظ بوضوح صورَة ثنائيّة الجانب للرجل والمرأة، اللذين يتبادلان الوفاء والإخلاص، وهي صورةٌ تعكسُ مدى أهميّة الزوج لزوجه،

سابعًا :تصوير الجمال الجسديّ (للرّجُل المِثال)

أبدعت المرأة في تصوير الجمال الجسديّ للرجل، ولعلّ أهم ما يميّز تلك الصورة هي أنها الأكثر خصوصية في حياة الأنثى الأندلسية المبدعة، فهي تتحدّث عن رجل يملكُ قلبَها ويستحوُذ على تفكيرها ، والذي بسببه ضَرَبَت بعادات المجتمع، وتقاليده الجاّفة مع النِّساء لُتعلن بحبّها عن تحررها من سطوة المجتمع، ورقابته عليها.

وقد كان للجمال الخُلقيّ أهمية خاصة في صورة الرّجل المُشتهى، فقد عُنيت المرأة بتصوير جمال جسد حبيبها، فكان خدُّه في بياضِه وتألقِه يُشبه الورد الجميل ، تقول الشاعرة البلشيّة: (مجزوء الرمل):

لي حبيبُ خدِّ كالوردِ حُسنًا في بياض
هوَ بين الناس غض بان وفي الخلوةِ راض [33]

فالشاعرة تشبّه في البيت الأول خد الحبيب بالورد، في جمال لونه، ونقاء بياضه .وفي البيت الثاني تشير إلى سمةٍ متعلقة بمبادئه، وقناعاته، فهو لا يُظهِرُ وُدَّه لها أمام الناس ، بل يُشعرها بذلك في خلوته معها دِلالة على حفاظه عليها، خشية أن تلوك سمعَتها ألسنة الناس. ومن الشاعرات اللواتي تغزلن بجسد الرجل _ أيضًا_ الجارية أنس القلوب، يبدو ذلك في قولها: (الخفيف)

فكأنَّ النّهارَ صفحَة خدِّ وكأنَّ الظلامَ خطُّ عذار[34]

ففي البيت السابق تتغزل الشاعرة بخد الحبيب، وتصفه بالنهار، في بياضه ونوره. والرجل الذي تحبه المرأة لا تجد أطيب من ريقه، حين ترشفه في أوقاتِ الحب الحميمة التي لا تخلو من الضّم، والّتقبيل في بعض الأحيان .وقد وصفت الشاعرة الأندلسية حفصة الركونية هذه الصورة بدّقة، حينما وصفت حلاوَة رُضاب فمِ الحبيب، بقولها: (الطويل)

المنارة للاستشارات

ثنائي على تِلك الثَّنايا لأنّني أقولُ على عِلمٍ وأنطق مِن خبر
وأُنصِفُها، لا أكذب الله إنّني رشفت لها ريقا ألذ من الخمر[35]

فالشاعرة هنا تشبّه رضاب فم الحبيب بالخمر، بل ألّذ من الخمر. وممّا يجدرُ ذكره أن الخمر كان شرابًا مقدسًا للآلهة في العصر الجاهلي[36]، ممّا يثيرُ تساؤلا حول امتداد الجذور الفكرية نحو القديم لتربط المرأة كل ما يخص جسد الرجل بالقداسة؛ لقيمته العظيمة بالنسبة لها.

إنّ الأبيات السابقة للشاعرة حفصة الركونية، تكشف بكلّ جرأةٍ، ووضوح تصوير المرأة لعلاقتها الجنسيّة بالرجل، فوَصْف الشاعرة لرضاب الرجل بكل هذا التأكيد "أقولُ على عِلمٍ/ وأنطِق من خبُر / وأُنصِفها لا أكْذِبُ الله" تَجعلُ القارئ يستشعِر صدق إحساسها، ويُوقن بتأثير الرضاب على النّفْس، تمامًا كتأثير الخمر في تغييب العقل، وهذه الأبيات وإن كشَفت عن صورةٍ للرجل المُشتهى، فقد كشفت من جانب آخر عن علاقة الرجل بالمرأة، وهي علاقة تلاحمية تشكّلُ هاجسًا غريزيًا لدى الطرفين على حدٍّ سواء.

وبهذا يّتضح لنا أن أشعار الأندلسيات تتضمّن في أبياتها ملامحَ جنسية تعكسُ تحرّرا وانفتاحًا عاشته النّسوة في البيئة الأندلسية.

ولم يقتصر الغزل الحسيّ بالرجل على وصفِ ريقه فحَسب، بل شمل غزلهن جسده كّله (خُلقًا وخلْقا)، فتبدو صورُة المحبوب مثالية كاملة الصّفات، يأتي هذا المعنى عند الشاعرة حفصة بنت حمدون، في قولها: (الطويل)

له خُلقٌ كالخمر بعد مزاجها وأحسنُ من أخلاقه حُسن خِلَقته [37]

فالشاعرة تُصوّرُ في هذا البيت محاسن أخلاق الرجل، كما تُصوّرُ إلى جانب ذلك خِلْقته الجميلة؛ مما يُؤكد لنا أن المرأة تنجذبُ إلى جمال الرّجل الجسديّ، مثلما تنجذبُ إلى أخلاقِه الرفيعة.

الخاتمة:

توصلت هذه الدراسة إلى مجموعةٍ من النتائج، من أهمّها:

1- كشفت الدّراسة عن القيمة المتميّزة للمرأة الأندلسية، والمكانة الرفيعة التي تبوأتها في نسيج العلاقات الاجتماعية والأسرية، كما بيّنت مكانتها المرموقة التي تبوأتها في مجتمعها،

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

فقد ساهمت في مختلف شؤون الحياة، وظهر في الأندلس عالِماتٌ، وأديباتٌ، وحافِظات للقرآن وراوِياتٌ للحديث النَّبويّ الشَّريف.

2- يوضّحُ هذا البحث مدى حُبّ الرجل للمرأة الأندلسية، واحترامه لها، أمًّا، وزوجة وحبيبة ،وقد بلغت في قلب الرجل مكانًا عظيمًا، جعله ينفِّذ أوامرها، ويتحاشى غضبها ويَسعدُ في إرضائها.

3- يكشف البحث عن أبرز شاعراتِ كلِّ قرن في العصر الأندلسيّ، فظهرْنَ من مختلف الطَّبقات حيث كان منهن الأميرات، والحرائر من الطبقة الأرستقراطية، ومن عامّة الشَّعب وكان بعضهنّ من الجواري والإماء.

4- أظهرت الدراسة جُرأة المرأة الأندلسية في الكشفِ والبَوْح عن رغباتِها، وأحلامِها وأُمنياتِها كما بيّنت الدراسة أهمّ العوامل الدَّاعِمة لانطلاقِها في الفنِّ، والإبداع الأدبيّ.

5- يبيّنُ البحث أنَّ المرأة الأندلسية نظمت في معظم الأغراض الشعرية دون استثناء، كالمدح والتهنئة، والحنين، والغزل، والفخر، والرثاء .ولم تجد حَرَجًا أو خوفًا في الخوض في موضوعاتٍ جريئة، كالغزل الحسيّ الماجن، والهجاء الفاحش المُقذع الشاذ.

6- أبرزت الشاعرة الأندلسية مشاعِرَها نحو الرجل دون خوفٍ أو حياء، كما عبَّرت بكل جرأة عن رَغباتِها الجنسيّة نحوه، واشتهائِها لجسده.

7- صوّرت المرأة الأندلسية معشوقها بأَبْهى حُلة، وخلعت عليه صفات الرجل المثال، الذي يُشِعُ نورًا وبَهاءً (كالشمس والقمر) وينفردُ بالحسن والجمال، وتزيده أخلاُقه الحسنة، وصفاته الرفيعة سُموًّا، ومكانة رفيعة في عينها.

8- التقطت المرأُة في شعرها صورًة قبيحة للرّجل المَهْجوّ، فجَرَّدته من شّتى الفضائِل الخُلقية وانَتزعت عنه الجَمال الخَلْقيّ، وقد تعدّى هجاؤُها له حتى أَوْغلَ في الُفحش والبَذاءَة.

9- يحفلُ شعرُ المرأة الأندلسية بسماتٍ فنيّة، وأساليب بلاغيّة مميز ة، كما يزخرُ شعرُها بالمُؤثّرات الموسيقيّة، والألفاظ الرقيقة العذبة، وبذلك تعتبر المرأة الأندلسية شريكة للرجل في عملية الإبداع الأدبي، وليست تابعة له.

وفي الختام، لا يمكن لهذا البحث المتواضع أن يُلمَّ بكل ما قيل في هذا الموضوع فمهما اجتهد الإنسان، فالكمال لله سبحانه، ولا يمكن لبحثي أن يصادرَ أبحاثًا أخرى في المستقبل إذ يمكن الكشف عن صور أخرى للرجل، لم يسعفني الجهد في الوصول إليها

المنارة للاستشارات

فالشعر النسوي في الأندلس يزخرُ بالصُّور، والرُّؤى التي تحتاجُ إلى مزيدٍ من الكشفِ والعمل الدؤوب لإبرازها.

الهوامش:

(1). الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح:سالم البدري، دار الكتب العلمية،ط1، 1998، 1/ 268.

(2). م،ن،1/ 268.

(3).عيسى، فوزي:شاعرات الأندلس و المغرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008.

(4).أبو صالح،وائل فؤاد: التربية اللغوية في الأندلس،ص 248.

(5).الشكعة،مصطفى:الأدب الأندلسي(موضوعاته وفنونه)،ج2، ص119.

(6).كريم، واقدة يوسف، شعر المرأة الأندلسية من الفتح إلى نهاية عهد الموحدين: 92- 635هـ، جامعة تكريت، 2003 م، ص 49.

(7).المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4 ، ص298.

(8) المقري، م،ن، 4 /290 .

(9) .م،ن، 1/ 617.

(10).السوّاح، فراس: لغز عشتار" الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة"، ط8 ، دار علاء الدين ، دمشق، 2002 ، ص274.

(11).سورة النمل، الآية 22- 26.

(12). سلمان، كمال فواز أحمد: الشمس في الشعر الجاهلي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2004 ، ص 12-20.

(13).السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص43.

(14). المقري : نفح الطيب، ج3، ص 530. ووردت في هذا البيت كلمة (تلبسُ) بدل (يقبسُ) عند السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص75 .

(15).ابن سعيد :المغرب في حلى المغرب ، ج2 ، ص164 ، وينظر :ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1 ، ص214 -219.

(16).المقري : نفح الطيب، ج4 ، ص176 .

(17).ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج2 ، مادة (شجُعَ) .وينظر :مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (شجُعَ).

(18).الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الشريد، الديوان، تح:عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص75 .

(19).الرئبال :الأسد

(20).سِبطْر :يقال أسدٌ سِبَطْر :يمتدُّ عند الوَثْبَة.

المنارة للاستشارات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

(21).السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص62

(22).المقري: نفح الطيب، ج4 ، ص298

(23).سورة الواقعة، الآية رقم 77

(24).سورة الدخان، الآية رقم17 ،

(25).سورة الدخان، الآية رقم26 .

(26). المقري: نفح الطيب، ج4، ص291 .

(27). السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص78 .

(28). المقري: نفح الطيب، ج3 ، ص141 .

(29).سورة الإسراء، الآية 34.

(30). الأبشيهي، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد: المُستظْرَف في كلِّ فنٍّ مُستظرف، تح: إبراهيم أمين محمد ، المكتبة التوفيقية القاهرة، مصر، ص219

(31).علي، أسامة: آدم وحواء " عالمان ودنيا واحدة " ، ص96

(32).كريم، واقدة يوسف: شعر المرأة الأندلسية من الفتح إلى نهاية عهد الموحدين، ص3- 47

(33).الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة،(ت599 ه): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي، 1967 م ، ص 545 ،وينظر :أبو حسين، محمد صبحي أسعد: صورة المرأة في الأدب الأندلسي (في عصر الطوائف والمرابطين)، عالم الكتب الحديثة الأردن، 2003 ، ص209 .

(34).المقري: نفح الطيب، ج1 ، ص617

(35).السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص 42 ،وفي النفح وردت كلمة (أرق) بدل (ألّذ)، ينظر: المقري: نفح الطيب، ج4 ، ص173

(36). البطل، علي: الصورة في الشعر العربي (حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها)، دار الأندلس ، ط 3 ، بيروت، 1983 ، ص74 .

(37).السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص 43 ،وفي النفح ورد هذا البيت:

له خُلقٌ كالخمر بعد امتزاجها وحُسْنٌ فما أحلاه من حين خِلْقتِه

ينظر :المقري: نفح الطيب، ج4 ، ص285 .

*** *** ***

المنارة للاستشارات